

النظام والعرفان في اللغة

د. فدوى العذاري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بسوسة-تونس

سيطر مفهوم النظام على مسار الوصف اللساني منذ ما يزيد عن قرن من الزمان. بدءا بزيادة دي سوسير في إقرار هذا المفهوم مسيرا للدراسة الأنية لوقائع اللسان. ومرورا بثورة التركيب والحوسبة في معالجة انتظام الظاهرة اللغوية بغاية التوصل إلى إرساء "النحو الكلي" مع مختلف المناويل التوليدية. وصولا إلى ثورة "ضديدة" - إن جاز التعبير - سواء مع التيار التداولي من خلال إزاحة هذا المفهوم وإيلاء مفاهيم مغايرة كالدلالة والمقام والمحادثة وغيرها منزلة أولى... أو مع ما تولّد عن نقد المناويل التوليدية نفسها في الأنحاء العرفانية من مفاهيم تتعلق بالعرفان البشري والتعامل مع الجسدي والثقافي. وهو حراك يوجز في الحقيقة واقع التدافع بين اتجاهات فلسفة العلوم التي نعنى منها في هذا العمل بإفرازات التدافع بين الموضوعية الكلاسيكية والتجريبية الواقعية على الوصف اللساني.

فالمشهد بالأساس عبارة عن حركة تطوّر وانبثاق اتجاه ناقض عن اتجاه سابق، حيث عني هذا بتركيبية اللغة ونظاميّتها واهتم الثاني باندرجها ضمن مظاهر العرفان العامة كأحد تجليات الذكاء البشري الطبيعي يستعيز عن النظامي بالبيولوجي والثقافي. فمنذ الصيغ الأولى للنحو التوليدي اندرج التصور التحويلي أساسا ضمن التحليل البنيوي، من خلال العناية بظواهر النقل والتحويل وغيرها... وتولي زاوية النظر هذه الأولوية للترتيب النمطي *canonique* لمكونات الجملة. في حين ترى الأنحاء العرفانية التي صدرت عن الموروث التوليدي نفسه، أنه لو أولي بعض الاهتمام لنشاط العرفان في تجليه اللغوي وتفاعله مع سائر الملكات العرفانية ضمن الاستعمال وتمثيل المحيط والسياق، لا سيما برصد حركة التاريخ والتحويلات، "فسنواجه بضعف تواتر هذه النمطية في أبنية الجمل" (Coveney A 2011 : 18).

فالأتجاهان متعارضان أحدهما يركّز على نظامية اللغة رغم الانطلاق من بيولوجيتها كعضو ذهنيّ في بعده الفرديّ، وهذا طرح النحو التوليديّ على اختلاف مناويله بما فيها البرنامج الأدنويّ. ويعتبر الثاني اللغة ملكة ذكاء عرفانية تجمع بين البيولوجيّ الطبيعيّ والثقافيّ. لذلك تعتبر معظم الأنحاء العرفانية المعنى حصيلة "معالجة لإشكال" أكثر من كونه مكوّنًا تأويليا لاحقا ضمن بنية منطقية أو مكوّنًا نظاميا حوسبيا مبنيا على فكرة أن جوهر النحو التركيب والحوسبة وأنه في أساسه بسيط simple ومجد Efficace.

لكنّ السؤال الذي يعيننا في هذا السياق: هل يلغي العرفان النظام؟ بمعنى هل يقتضي اعتبار اللغة مركزا عرفانيا كونه غير نظامي؟ ألم تكشف الدراسات والنظريات العرفانية عن "أنظمة" عرفانية كبرى أساسية على الأقل يمكن اعتبارها أنظمة مقولية مسيرة في ذهن البشري تتم أمثلتها و"جسدنتها"¹ في علاقتها بالمحيط والعالم الخارجي؟ ماذا تعني هذه الخطاطات والمناويل المؤتملة التي تنظم مدركاتنا وصورنا الذهنية بأنواعها من قبيل ما سمي بالخطاطة "الحاوية" CONTAINER schema وخطاطة الكل والجزء PART-WHOLE schema وخطاطة المركز والأطراف² CENTER-PERIPHERY schema وخطاطة المصدر - المسلك - الهدف وغيرها إن لم تكن أنظمة؟؟؟

وماذا أيضا لو رأى اتجاه "جامع" في اللغة "نظاما عرفانيا" طبيعيا يتعامل مع التاريخي الطارئ بشكل جماعي. إذ تمثل هنا تدخّل الدماغ البشري في حركة التاريخ أو هي أحد آثاره في هذه الحركة بحيث يجمع إلى النظامي ما هو طبيعيّ، وإليهما معا ما هو تاريخيّ ثقافيّ جماعيّ؟؟ لذلك نجعل مدار هذا العمل على البحث في أشكال التطور والانتقال من المقاربة النظامية القائمة على التحويل والتوليد الشكليين إلى المقاربة القائمة على تعامل الذهني والعرفاني مع الجسدي والثقافي. وعلى السؤال في محركات هذا التطور: أهو واقع التواجد بينهما في اشتغال

1 - اعتمدنا ترجمة الأستاذ الزناد 2010 للمصطلح العرفاني: " Embodiment : الجسدنة".

2 - اعتمدنا في تعريف هذه المصطلحات الزناد (الأزهر) 2010: 168.

اللغة أم هو واقع **التدافع** كما يظهر على السطح؟. ولعل غايتنا من اختبار هذه المقاربات اللسانية هي رصد مواضع الالتقاء والاختلاف بينها فيما يتعلق باللغة من مسائل العرفان البشري والبحث ضمنها في حقيقة العلاقة بين النظام والعرفان من جهة وبين ما هو جماعي ثقافي تاريخي من جهة ثانية، بما قد يكون الأقرب إلى حقيقة اشتغال الوقائع المدروسة.

1- نظامية اللغة في التوليدية:

عرف النحو التوليدي انسلخات عديدة منذ النصوص الأولى لشومسكي (1957-1965)، لكنّ الفلسفة العامة لم تتغير كثيرا. فرغم كل المراجعات التي شهدتها النظرية التوليدية على اختلاف مناويلها بقي مفهوم النظام وما انضوى إليه وجرى في فلكه من مفاهيم ومقولات من قبيل البنية والمنوال والإعراب وآليات النقل والتحويل والتوليد وغيرها الركائز الأساسية لهذه النظرية.

فالأسئلة النظرية التي طرحها شومسكي سواء في أعماله الأولى أو الحديثة (شومسكي 1999-2005) تواصل إثارة النقاشات حول الأنظمة الممكنة من الكشف عن الخصائص الكونية للغة للتوصل إلى ما سماه بـ"النحو الكلي" Universal grammar. وهو عبارة عن جملة من المبادئ المطّردة التي لا يطولها الشذوذ لأنها تمثل للملكة أو "القدرة اللسانية" Compétence linguistique (Chomsky 1988 : 62). فهذه القدرة من حيث هي إطار عام لكل لغة مخصوصة هي "لغة مضمرة"¹ Individual language فردية موجودة في ذاتها وجودا مستقلا عن غيرها من أشياء الكون. وهي غاية النحو الكلي من حيث هو جهاز سابق لكل تجربة لغوية، مهمته تحديد المبادئ التي تسيّر اشتغال تلك الملكة أو بالأحرى تحديد "نظامها".

1-1- موضوع اللسانيات:

1 - وفق ترجمة الزناد (الأزهر) 2010: 44.

قدم بواكس Boecks 2006 خلاصة المقاربة التوليدية في شكل ستة محاور أوضحت مسلمات فيها:

- 1- الوحدة الأساسية للسانيات هي الجملة.
- 2- تتركب الجمل من تأليفات بين الأصوات والمعاني.
- 3- الجمل -بشكل كامن- لانهائية.
- 4- الجمل مركبة من مقطع أو عدة مقاطع.
- 5- تنتج مختلف الأبنية تفاعلا بين مبادئ ومقاييس (خصائص إعرابية تعرّف قدرتنا اللسانية)
- 6- تتسم الجمل بخصائص نقل (Boecks 2006 :73).

يظهر ذلك اعتماد النحو التوليدي على نظامية خاصة تسيّر اللغات، حيث تحتل عناصر الجملة محلات أخرى غير التي تحتلها في البنية السطحية. فالنقطة 1 تعكس الاعتقاد في الفلسفة اليونانية ونحاة بوررويال Port Royal، أي أن البنية "السطحية" للجملة (في اليونانية onoma / rhema) تتقابل مع بنية منطقية "عميقة" (Argument/ Prédicat). كما لا تنأى المسلمة 2 عن التعريف البنيوي النظامي للعلامة، إذ تستلزم هذه المسلمة أن كل جملة لا تشتمل فحسب على "شكل صوتي" وإنما أيضا على "شكل منطقي". ووفق المقاربة التوليدية فإنه انطلاقا من الشكل المنطقي غير الملاحظ مباشرة يمكن التوصل إلى تأويلات صالحة لجملة معطاة وفق نظام معلوم. وبالتسليم بالمسلمتين 3 و 4 يسجل بويكس التكرارية la récursivité، المبدأ الرياضي الذي تتألف وفقه كل المركبات داخل اللسان من نفس مستويات البناء التكرارية التي توظف لتحديد التأويل أو توجيهه وهو مبدأ من أوكذ ركائز النظام. وأخيرا تجسد المسلمتان 5 و 6 المبدأين **الأهم** في النظرية التوليدية الحالية، فالمسلمة 5 تفترض أن السمات الخصوصية للألسنة تحدّد بواسطة عناصر تصورية أولية تنبثق من الإرث البيولوجي المشترك الذي يسميه التوليديون "القدرة اللسانية". وتؤكد المسلمة 6 أنّ الاختلافات بين الجمل بنفس اللسان يمكن أن تعزى إلى بعض "التحويلات" أو "العمليات الذهنية". وقد لخصه جاكندوف بما مفاده أنه "نظام أعلى مجرد شكلي جبري Algebraic ينتظم معظم معايير

التفكير، والتمييزات في هذا النظام كامنة ولا تظهر على أساس التجربة، إنها الآلة القادرة في الدماغ البشري على تسيير الطرق والأشكال التي تجعل كل تجربة مشفرة ذهنياً¹ (Jackendoff 1997: 32).

في حين أن هذا التصور **المؤمّل** و"الذهني - النظامي" في الآن ذاته للغة الطبيعية بدوره ليس إحداثاً خاصاً بالمنوال التوليدي، ويمكن رصده لدى هومبولدت 1836 Humboldt وقيام Guillaume 1946 : 8، خصوصاً فيما يتعلق بالمسلمة 5 التي تفترض أن كل الألسنة يمكن تفسيرها بسلسلة من المبادئ والمقاييس التي تكون مجتمعة في "القدرة اللسانية المشتركة"، والمسلمة 6 التي تفترض أن الاختلافات الشكلية بين الجمل يمكن أن ترجع إلى عدد من الاشتقاق أو "النقل" انطلاقاً من بنية تحتية. (Gledhill 2011 :376).

ملخص القول أن النحو الكلي بما هو دراسة القدرة اللسانية الفطرية في التصورات التوليدية إجمالاً هو نظام ثابت من المبادئ الكونية ومجموعة محدودة من المقاييس النحوية التي تحكم التنوع البنيوي في اللغات المخصوصة المختلفة.

1-2- غاية اللسانيات : القدرة اللسانية:

يعتبر التوليديون أن الغاية الأساسية للمقاربة التوليدية هي تحديد " القدرة اللسانية " للمتكلم. وعديد الظواهر تبين الاستعداد الفطري البيولوجي للغة، ولكنّ التمشي الأساسي ليس دراسة الظواهر التي تعود للسانيات المطبقة، وإنما مجال النحوي التوليدي هو الخصائص النظرية العامة للقدرة اللسانية. ويتعلق الأمر هنا بـ"النحو الكلي" لما يقبل أو لا يقبل التعبير في الألسنة البشرية. لذلك حاولوا تحديد خصائصه بطريقتين: الأولى مقارنة الخصائص "المركزية"

¹-"Beneath the surface complexity of natural language concepts lies a highly abstract formal algebraic system that lays out the major parameters of the thought. The distinctions in this system are quiet sharp and do not appear to be based on experience. Rather I would claim; they are the machinery available to the human mind to channel the ways wick all experience can be mentally encoded" (Elements of the universal grammar for conceptual structure – Jackendoff 1997: 32).

centrales في مجموع الألسنة البشرية. والثانية: صياغة الآليات الأشد "مركزية" في انتظام الجملة.

ورغم المحافظة على المنهج النظامي الذي خضعت له المناويل التوليدية المتلاحقة لم يصمد تمثيل الجملة وفق الصيغة المعيارية لدى شومسكي (1965/1957) : (ج ← م اس م ف) ¹، وإنما صارت الجملة وفق نظرية س مسقطة (X-bar or X' theory) X-barre تنتظم حول نواة واحدة تحددت بـ (Agr/agreement/ accord) / Inf (inflexion)، أو حديثا T (tense/ temps verbal). وقد تبنى مقاربة س مسقطة شومسكي وجاكندوف 1977 وكاين 1984 KAYNE، ويتعلق الأمر بجهاز تعجيمي حافظوا عليه في كل الطروحات المتتالية للمنوال. والفكرة الرئيسية فيه أن كل جملة وكل مقطع في لسان ما له نفس الانتظام التحتي. ويمكن التمثيل له بصيغتين:

1- س² ج ← مخصص س' Spécifieur X' XP →

2- س' ← س متمم X complément X' →

ويمكن تأويل هذه القواعد كآتي: كل بنية نحوية (س ج XP) تتألف من نواة ضرورية (س X) ومن عنصر متمم لمعنى النواة (Argument / Complément)، وتكون هذه النواة في الآن نفسه مغطاة ببنية وسيطة تكرارية بشكل كامن (س' X)، وأيضا بعنصر خارجي أو مخصص spécifieur : هذا العنصر يغير النواة ويُوظف كرابط بين النواة ومحيطها المقطعي الخارجي.

ووفق أحدث الطروحات في النظرية التوليدية (Biola 1998, Radford 2004, Haegeman 2005) يُسلم بأنّ العنصر المحوري لكل الجملة هو المسند (VP) وحوله تُسقط باقي عناصر الجملة، ويتعلق الأمر هنا بافتراض "المقطع الفعلي الأولي Syntagme verbal primitif"، ويمر العنصر المحوري بجملة من التحويلات والنقل داخل الجملة، وهو ما يختلف فيه انتظام الجملة الفرنسية مثلا عن الجملة اليابانية....

¹ - (S → NP VP): "جملة مؤلفة من مركب اسمي ومركب فعلي"

² - الرمز س X يوافق عنصرا معجميا موحدًا (اسم، فعل، صفة،..)

3-1- مآزق النظامية ومعالجاتها:

رغم أهمية التعميمات المقدمة في نظرية س مسقطه فإنها تشهد في الواقع بعض التضارب، فالأبنية س ج XP و س' X' المذكورة سابقا لا يمكن أن تفسر مثلا كيف يمكن أن تتداخل مختلف المركبات (TP, VP, DP, etc. ...) في الجمل المركبة. كما لا تبدو هذه النظرية مؤهلة لتفسير طرق تعامل المعلومات والمعاني والمقولات النحوية في مختلف محلات الجملة (الجنس والعدد...) أو لتفسير أشكال تكوّن صوغات paraphrases نحوية كالاستفهامات والأبنية المسندة للمجهول... (Gledhill 2011:351). لذلك استنبط التوليديون مبدأ نقل ألفا (move α)، ووفق هذا المبدأ يفترض إجمالاً أن كل علاقات الجملة يمكن تفسيرها بواسطة حركة المعلومات النحوية أو العناصر المعجمية.

كما افترضوا لمواجهة هذه المآزق، وأهمها الدلالة، جملة من النظريات التكميلية التي مثلت مسلمات شبه رياضية صغرى صيغت بغاية تثبيت مختلف القيود أو عزلها. أول هذه النظريات ما سمي بنظرية ثيتا (θ -theory) Théorie Théta، وحسب هذا المفهوم يُفترض أنّ كل مسند أولي يقترن بدور دلالي لصيق بكل مواضيعه وعناصره. وقد انتهى النحو التوليدي إلى إقرار نفس البنية التحتية لكل جملة تشتمل على علاقة بين حدث ومشارك. وقد أدى هذا المفهوم إلى نظرية الحالات (Théorie des cas / Case theory)، ووفقها يتعين أن تنتقل بعض عناصر الجملة لملء شروط متصلة بتوزيع الوظائف الإعرابية منذ بداية اشتقاق الجملة. ثم أحدث التوليديون منظومة أخيرة سموها "نظرية الربط" Théorie de liage (Binding theory)، وتتص هذه على أنّ كل عنصر منقول أثناء اشتقاق الجملة يترك "أثراً" أو سلسلة من الآثار، وتحتوي هذه الآثار على سلسلة مقارنة إحالياً Co- référentielles تسمح ببناء تأويلات مختلفة لعناصر منقولة داخل الجملة.

لكن من المهم تسجيل أن اعتماد التوليديين النقل لا يحيل فحسب على الحركة الظاهرة داخل الجملة وإنما أيضا على الحركة التحتية أثناء اشتقاق الجملة. ويستلزم هذا التصور وجود "المقولات الفارغة" Les catégories vides (Empty slots)، وعلاقات مقارنة إحالياً تسمى "آثاراً" أو "إشارات"، واستعمال أشكال افتراضية: pro : PRO/pro وعديد المفاهيم الأخرى. وليست هذه المفاهيم ذات غايات تفسيرية فحسب وإنما تعود إلى النظام العرفاني للمتكلم.

في المقابل ليست النظرية ثيتا T. Théta في الحقيقة سوى تذكير بالمسلمة 6 المذكورة أعلاه: كل جملة مهما كان تركيبها مشتقة بواسطة النقل من إسناد أول محتمل لمجموعة أدوار أو مواضيع ضرورية، وبالمثل فإن "نظرية الحالات" تفرض نظاما تركيبيا نمطيا على مجموع المركبات، فكل تركيب لا يوافق هذا النظام يعدّ نتيجة نقل. وكذلك فإن نظرية الربط هي آلية اشتغال تسمح بإعادة تخطيط (بواسطة الإشارات أحادية المرجع) الانتظام الأولي الأصلي للجملة إثر التقلبات المتاحة بواسطة مبدأ "نقل ألفا". (Gledhill 2011 : 353).

ولا ينفصل البرنامج الأدنى Minimalist program (Chomsky 1995) كثيرا عن هذه الثوابت القارة بل يعدّ خلاصة مركزة لها. حيث يعتبر كغيره من صيغ التوليدية الأولى اللغة نظاما محكما ذا تصميم أمثل perfect system with optimal design يمكن اعتباره الجملة بموجبه حصيلة حوسبة تنتج بواسطة جملة من التحويلات والاشتقاقات. والجديد مع البرنامج الأدنى هو مقياس الاقتصاد economy criterion، وهو الذي يقضي بإلغاء كل التمثيلات والاشتقاقات والتحويلات غير الضرورية في الربط بين الصوت والدلالة. فضرورات الأنظمة العرفانية الأخرى المتعاملة مع القدرة اللسانية كالضرورة النطقية للتصويت والضرورة التصويرية لتحديد المعنى تقتضي التحديد والدقة. مما أودى بالتميز التقليدي التحويلي (بنية عميقة وبنية سطحية) لإخلاله بمبدأ الاقتصاد. وبنفس المنطق تم إلغاء تمييز "القواعد المركّبية" phrase structure rules عن القواعد التحويلية transformational rules، إلى غير ذلك من الإسقاطات والتمثيلات الرمزية التي أثقلت صيغ النحو التوليدي الأولى. (Chomsky 1995 : 130). ومقتضى تسمية هذه المرحلة الحديثة من الصياغة التوليدية بـ"البرنامج" وحدها يعكس الحرص المتزايد على إخراج النحو على أقصى درجات البساطة الممكنة. فاللغة هي النظام ذو الهندسة المثالية على غاية من الكمال.. (Chomsky 1998, 1999, 2002)¹

خلاصة القول أن النظام في التوليدية على اختلاف صيغها ومناويلها المعدلة وبرامجها النظرية والإجرائية يظل مفهوما مركزا/ نواة، وهو نظام حوسبي جار في مختلف اللغات الطبيعية ولا يقوم إلا على قدر محدود من التنوع المعجمي والتنوع الصرفي بالأساس. ويشتمل هذا النظام على مستويات تمثيلية هي مستويات الاشتقاق في بناء البنية اللغوية. ويعتمد في ذلك على

1- الزناد (الأزهر) 2010 : 54.

الوحدات المعجمية بواسطة عمليتين أساسيتين هما: **الانتقاء Selection** بانتقاء الوحدة المعجمية وإخضاعها للاشتقاق و**الضم Merge** بضم بنيتين إعرابيتين ضمن واحدة حتى تبلغ الوحدة المعجمية مستوى الاقتران بين الشكل الصوتي والشكل المنطقي. ولكن يظل هذان المكوّنان لاحقين تأويليين بالنظر إلى مركزية الإعراب في هذا النظام الحوسبي (Jackendoff) (15: 1997). ويبدو الأمر منطقيًا بالنظر إلى عودة هذه الافتراضات إلى تصور النحو خوارزمية توليدية.

2- عرّفة اللغة:

لقد انطلق هذا التطور من نقد النحو الكلي، وتحديدًا مناقشة فكرة أنّ جوهر النحو نظامي حوسبي **Computational** وإعرابي تركيبى **Syntaxique**، وأنه في أساسه بسيط **simple** ومُجد **Efficace**، وأنّ الشذوذ (أو عدم الانتظام) مستبعد من المعجم. أما دور الدلالة فمحدود باحتراز واضح. إذ من التوليديين أنفسهم من لم يقبل في هذه الفكرة النظامية المطلقة القائمة على مركزية الإعراب كنظام شكلي قائم بذاته منغلِق عليها منفصل عن غيره ...

2-1- موضوع النحو العرفاني:

لقد اعتبر لانفاكار النظرية اللسانية شاملة لمختلف أبعاد البنية اللغوية ولا تختص ببعد أو مظهر واحد. والأولى فيها تحديد المفاهيم والتصورات الأساسية لا إغراقها بالشكلنة الجوفاء. فمكوّنات الأبنية النحوية لا تكوّن نظامًا شكليًا مستقلًا بذاته وإنما هي أبنية رمزية تخدم المفاهيم حين ترمز إليها. وبالتالي لا فائدة من المقابلة بين الثنائيات التي حكمت الدرس اللغوي منذ القديم بقدر ما يجدر مراعاة الاسترسال القائم بينها. فلا معنى للفصل بين الإعراب والمعجم والصرف والدلالة، وإنما تكوّن جميعها استرسالًا يفرض التداخل والتقاطع. كما لا معنى في نظره للتحليل المنطقي للدلالة بناء على شروط الصدق لارتباط الأبنية بنظم عرفانية مفتوحة ولا متناهية.

فاللغة ليست نظاما مكتفيا بذاته قابلا للشكلنة في أقصى درجاتها الممكنة إلى حد الاستقلال عن سائر مراكز العرفان البشري كما أجمعت على ذلك معظم مناويل التوليدية وبرامجها. مما أدى إلى فرض مركزية الإعراب واستقلاله عن المعجم والدلالة اعتمادا على المنطق الصوري. وإنما اللغة في طرح لانفاكار أحد المراكز العرفانية التي لا يمكن تفسير سلوكها بمعزل عن العمليات العرفانية بشكل عام وعن آليات معالجتها. ويعتبر أن معالجة اللغة من هذه الزاوية هي من أهم ما يمكن أن يحفظ للوقائع المدروسة "طبيعيّتها Naturalness".

وبالنظر إلى سؤال الدلالة، فإنه إن لم يكن النحو نظاما حوسبيا فإن الدلالة ليست كذلك أيضا. بل إن النحو ليس كذلك لأن الدلالة لدى لانفاكار وسائر العرفانيين ليست نظاما خوارزميا ولأن "كل شيء" يمكن أن يتدخل في تكوينها. ذلك أن حساب المعنى يعدّ "نشاط معالجة إشكال" على حد عبارة لانفاكار (19 : 1986 Langacker) ولا يمكن أن يكون "وصفات جاهزة" لبناء دلالات تامة بواسطة إجراء قواعد نظامية (53 : 2011 Fortis).

فماهي اللغة إذن في التوجه العرفاني إن لم تكن صادرة عن نظام حوسبي قائم على مركزية الإعراب واطراد المعجم كما أقرت أهم مناويل التوليدية ؟

2-2- مواجهة النظرية التوليدية:

لقد قامت المواجهة مع النظرية التوليدية على الإقرار التدريجي بمبادئ أساسية، من بينها :

- 1- الأبنية اللسانية هي أبنية وضعية جاهزة *idiomatiques* ولو جزئيا.
- 2- الأبنية التحتية *Sous-jacentes* هي أبنية دلالية.
- 3- لا يوجد ترادف بين البنية العميقة والبنية المشتقة.
- 4- كيفما ظهرت بنية الإشكال على السطح فلها تفسير ذاتي.

وقد توصل لانفاكار إلى إقرار هذه المبادئ عن طريق اختبار مباحث ذات أربعة فروع رئيسية: مراجعة الوصف التحويلي للأقوال الاستفهامية متأثرا بكاتز وبوستال وشاف Katz, Postal et Chafe وأقوال الملكية وقواعد النقل والعائدية *l'anaphore*، ووصف الألسنة الأتوازية *Uto-aztèques*، والأفعال المساعدة *Les auxiliaires* والبناء للمجهول *Le passif*.

2-2-1- فيما يتصل بآلية اشتقاق الأبنية السطحية من أبنية عميقة في الانتظام النحوي التوليدي للأبنية سجل لانفاكار احترازه حول تخصيص كاتز وبوستال Katz & Postal 33 : 1964 مستوى للتأويل الدلالي للأبنية الاستفهامية -على سبيل المثال- سمياه المؤشر المركبي التحتي السابق لكل التحويلات (underlying phrase marker)، بناء على مبدأ معالجة العلاقات النحوية في مستوى عميق نمطي هو صيغة الإخبار المبني للمعلوم (Langacker 1973). وقد أفضى به ذلك إلى استنتاج انعدام التكافؤ بين هذه الأبنية التي يفترض أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى، واعتبار ذلك علامة على جاهزية الأبنية ووضعتها **Idiomatique**. فسلوكها ومعناها ليسا سوى قابلين للتنبؤ بهما جزئياً ضمن بنيتها التحتية لا أكثر. وهو ما وضع آلية الاشتقاق برمتها موضع تساؤل.

2-2-2- أما بشأن البنية المنطقية اللاحقة لتكوّن الأبنية الإعرابية فقد مضى لانفاكار انطلاقاً من احترازه المذكور حول مؤشر كاتز وبوستال المركبي التحتي السابق للتحويلات، ومن دراسته لظاهرة الملكية في اللغة الفرنسية 1968 في افتراض كون الدلالة كامنة في التمثيلات العميقة، انطلاقاً من اختبار ما سماه **بالحالات العميقة للمفعول والإضافة objectif et Datif** (المأخوذة عن فيلمور 1968) واستعملها لاشتقاق الأبنية المركبة ب **être et avoir** وغيرها... ليقر بذلك دلالية الأبنية التحتية، حيث يتحدد تكوّن المدلولات بواسطة تجسيدها رمزياً، أي بواسطة تكوّن الدوال التي تعجم هذه الأبنية العميقة. وهو ما أرسله في اتجاه مقارنة لسانيات العلامة حيث يسير تأليف المدلولات بالتوازي مع تأليف الدوال.

2-2-3- أما فيما يخص إعادة النظر في التكافؤ بين الأقوال المحوّلّة فقد كانت سابقة للفكرة القائلة أن كل بنية شكلية تحمل معنى خاصاً فريداً **sui generis**، وأن كل لسان يسقط صورته الوضعية الاصطلاحية الخاصة على العالم، وأن التأليفات بين الأشكال والمعاني تُعالج كلا على حدة. وفي المنوال الطبقي التصويري **stratigraphiques**، وبموجب التمييزات بين المقولات في مستويات عميقة (بين **BE** و **DO** وفي أقوال الملكية)، ولاعتبارات تصنيفية قادت إلى تنقية التحليل الدلالي لهذه الأقوال في مختلف الألسنة استنتج لانفاكار أن الأبنية العميقة لها قابلية مجازية **halo métaphorique** تمنع التسليم بكونها تنتج أقوالاً متكافئة. لذلك لا تسمح هذه الأبنية بالتنبؤ بالسلوك الدلالي للأبنية (Langacker 1975 : 368).

2-2-4- وبالنسبة إلى الأبنية السطحية فقد بين لانكاكار 1974 إمكانية تغيير مواقع البروز / Saillance/ salience / للعناصر ضمن كل تصوري في أشكال السطح لتبني تفسيراً ذاتياً لها في إطار عملية التصوير Imagery التي انتهجها للعرض ضمن خطاطات مجردة، وهو ما يفقد الأبنية التحتية أو العميقة ضرورتها. فيما سمي في المرحلة التي تلت الدالية التوليدية بنظرية التراصف أو الطبقات التصويرية الوظيفية *théorie de la stratigraphie fonctionnelle* في النحو العرفاني.

2-3- غاية النحو العرفاني:

بالنظر إلى المؤخذات العرفانية على المناويل التوليدية المختلفة في الفصل بين اللغة وسائر العمليات العرفانية واعتبار اللغة نظاماً شكلياً قائماً بذاته، انصرف لانكاكار إلى اعتبار غاية النحو العرفاني هي المحافظة على الخاصية الأساسية للغة كموضوع للدرس وهو "الطبيعية"، إلى حد إقرار هذه الخاصية معياراً لتقييم النظريات اللسانية. فكفاية النظرية تقاس بمدى ملاءمتها لطبيعة الموضوع المدروس. لذلك كانت المناويل الشكلية بفصلها بين الظواهر وإقامة حدود وقيود واهية ومصطنعة بينها قاصرةً وذات نتائج مبتورة.

فغاية النظرية اللسانية في نظر لانكاكار هي تحديد الأبنية والقدرات التي تكوّن تمثّل المتكلم للمواضعة اللغوية، على أن يوافق هذا التحديد واقع العرفان. بمعنى أن يستند إلى ما يدعمه في اشتغال العمليات العرفانية عامة بما يضمن طبيعية الوقائع المختبرة ومنهج اختبارها. فاللغة في النهاية هي جهاز يمكّن من صياغة المفاهيم والتصورات ضمن سلاسل صوتية. والوحدات المعجمية أو الرمزية هي معطيات جاهزة مسبقاً بفضل العرف والمواضعة والاصطلاح، وما على المتكلم سوى إجرائها في الكلام باعتبارها روتيناً عرفانياً *Cognitive routine* دون التفكير في تكوينها الصوتي أو المقطعي أو الإعرابي.

وباعتبار لانكاكار النحوَ جرداً بنيوياً للوحدات الوضعية العرفية *a structured inventory of conventional units* (Langacker 1987) فإنه يتقابل تماماً مع التمشي التوليدي *generative process* التكراري، وإقرار "الوحدة الرمزية الوضعية" ينحي جانباً مفهوم "البنية القابلة للحساب نظامياً". بل إن تصور النحو خوارزمية في نظره يسقط على الظواهر الموصوفة قيوداً شكلية وحدوداً مصطنعة تؤدي بطبيعتها. على غرار ما ظهر من أمر آلية الاشتقاق وتكافؤ الجمل المحوّلة ولاحقية الأبنية الدالية في التمشي التوليدي التي أدت في

مجمّلها إلى إهمال الجانب الإبداعي والتصويري من اللغة مجسدا خاصة في ظواهر المجاز والاستعارة، بل وإخراجه من اهتمامات اللسانيات. فضلا عن الفصل المفتعل بين الدلالة والتداولية (الزناد 2010: 116). وذلك كله حصيلة اعتبار القدرة اللسانية نظاما وبرنامجا شكليا مغلقا مكنتيا بذاته مستقلا عن سائر القدرات العرفانية.

فالأبنية اللغوية في صورتها مرتبطة بنظم عرفانية مفتوحة. وإذا كانت الوحدات اللغوية وحدات رمزية في خدمة المضامين المفهومية فإن العلاقة بينها بدورها مفتوحة. ولا يستقيم التقابل المطلق بين مكوناتها. فالعلاقة بين المعجم والصرف والإعراب علاقة استرسال تعيّنت ملاحظة درجاته. كما أن العلاقة بين الوحدات المعجمية والدلالة متزامنة ولا معنى للفصل فيها. بل لا معنى أيضا للفصل في القيمة الدلالية للبنية بين الدلالي والتداولي. لذلك يتوسل لمعالجة تضيد المواقف والوضعيات في تحليل دلالة البنية بما سماه النحو التصويري عن طريق الخطاطات والمقولة *Shématisation et catégorisation*. كشكل من أشكال التذكير *processus de mémorisation*، وبنية تصويرية مهمتها تمثيل الرموز والمدركات والمفاهيم والصور في تفاعلها وتزامنها.

2-4- الدلالة معالجة إشكال وليست نظاما حوسبيا:

أدى ما تقدم إلى إقرار النحو العرفاني معطى الاستعمال، فإذا كان النحو جردا للوحدات فلأنه ليس خوارزميا، وهو ليس كذلك لأنّ كل شيء يمكن أن يتدخل في حساب المعنى بما فيها الاستعمال والوضعيات الممكنة. فالمعنى "نشاط معالجة لإشكال" (Langacker 1986 : 19)، وذلك لأنّ "المجاز" هو قسم متفرع عنه حيث يوجد الكثير من "المدى والملحقات المرنة" *lâches*، ولأنّ التناول والمعالجة الدلالية للوحدات تتضمن التأويل. وبتعبير ثان لا يقدّم إجراء قاعدة في النحو وصفة لبناء دلالة تامة. ويحدّد الاستعمال هنا كمجموعة مقاييس لوضعية تخاطب معطاة، وتسمح مساهمة الوضع والعرف غير القابلة للإقصاء في هذا الحساب المركب بتحديد هذه الدلالة بشكل شبه تام.

كما أن تجاوز لانقار للمنوال "الحوسبي" *calculatoire* لتوليد الإسقاطات سابق لظهور اللسانيات المبنية على الاستعمال. وقوام النحو العرفاني القائم على الاستعمال *Usage-based thesis* أن النحو الذهني عند الفرد إنما هو تجريد الاستعمالات في الواقع. فلا مجال

للفصل بين العرفان والاستعمال كما وقع في التوليدية (القدرة/ الإنجاز، النحو المضمر / النحو المظهر)، فالعرفان يتحقق بالاستعمال كما أن الاستعمال مسيرٌ بالعرفان..

فقد اعتبر لانقار تسأول بعضهم عما إذا كان من الممكن لمقاربة "عرفانية" للغة أن تشمل وظيفتها الاجتماعية (من حيث هي وسيلة للتفاعل) أو وظيفتها المرجعية (من حيث هي وسيلة في وصف العالم) تساؤلا لا معنى له، ولا أساس لهاتين المسألتين. فهما تتبعان من فكرة خاطئة مدارها أن ما يجري داخل الجمجمة منفصل عن كل شيء خارجها، بما في ذلك أدمغة الناس الآخرين. ولكن الأمر ليس كذلك ببساطة. "إنما العرفانية- بحكم كونها ماثلة في نشاط الدماغ- جارية بالفعل داخل الجمجمة. لكن الدماغ مركز لنظام عصبي ينتشر في جميع أنحاء الجسد، مرتبطا بالأعضاء الحسية والحركية التي ندرك العالم من خلالها ونفعل فيه. وليس نشاط الدماغ معزولا عن الأدمغة الأخرى. فمن مظاهر العرفانية الأساسية وعينا بسائر الأفراد ومعرفتنا كذلك بأنهم ذوات عرفانية. فنحن بارعون إلى حد ما في قراءة نواياهم، وكذلك في تخيل طبيعة تجاربهم الذهنية. وبذلك تكون العرفانية -وهي أبعد ما يكون عن الانعزال عن العالم وعن الناس الآخرين فيه- وسيلتنا الرئيسية في التعامل معهم." (رونالد لانقار: مدخل في النحو العرفاني 2008 : 500).

3- اللغة نظاما عرفانيا:

بقيت الأسئلة الأساسية عالقة تنتظر إجابة: هل يلغي العرفان النظام كما تساءلنا سابقا؟ هل يعني الذهاب إلى حد تلاشي المنوال التوليدي وانفجاره من الداخل (بالنظر إلى التوصل إلى عدم كفاية مبادئه ومقاييسه باعتباره نظاما مغلقا على ذاته) عن مفهوم "النظام" بشكل كلي؟ هل يودي هذا المفهوم فعلا بطبيعية موضوع الوصف؟ وهل يُعد ذلك معيارا تقييما لترجيح النظريات اللسانية أو إسقاطها؟؟ أليست العمليات العرفانية في حد ذاتها أنظمة ذات مبادئ اشتغال معلومة؟ أليست الخطاطات كأبنية تصويرية قوالب نظامية تركب المدركات والتمصورات لتكوين تمثيلات ذات معنى؟ ماذا تكون خطاطة الحاوية وخطاطة الكل والجزء وخطاطة المركز والأطراف وغيرها إن لم تكن أنظمة دقيقة لتضيد مدركاتنا وصورنا الذهنية من حيث هي أبنية معرفية على غاية من العموم والتجريد تمكّن الأفراد من بناء الاستدلال؟؟

3-1-1- النحو نظام حوسبي طبيعي:

في خضم هذه المشادات بين قطبين كبيرين يتجاذبان اللسانيات: **النظامية والطبيعية** العرفانية، يبرز طرح ثالث لعل طرفته تكمن في الجمع بين مزايا هذه وتلك. فالنحو في هذا الطرح "برنامج حوسبي طبيعي لمعالجة المعلومات المحيطة غير المسجلة جينيا ولا غريزيا معالجة جماعية ممتدة في الزمان والمكان" (الشريف 2012: 62).

3-1-1-3- طبيعية النظام/ البرنامج النحوي:

لعل أهم ما في هذا التعريف هو أولاً تخليصه لمفهوم النظام من الشكلنة والصورية المجففتين اللتين وسمت النحو التوليدي على اختلاف مراحلها ويكفل طبيعته كخاصية "نوعية". هذا الطرح ينطلق كسابقه من قضايا اكتساب اللغة، فهو وإن كان لا يسلم بمنهج "المطابقة النفسية"، بمعنى مطابقة الظواهر اللسانية المدروسة لحقائق نفسية قابلة للاختبار (فيما يسمى في الدراسات المغربية بالكفايات) أي أن يطابق الوصف اللساني ما يعتقد أنه موجود في ذهن المتكلم - وهو ما يسود الشق السلوكي في التوليدية الذي يعتبر اللغة حقيقة نفسية ذهنية- فإنه يقر أن الاكتساب محكوم باستعداد فطري ذي أصول بيولوجية (White-L 2003 : 1-9) ويخضع لعوامل ذات صلة باشتغال الدماغ.

وثانياً أن طبيعته النظام و البرنامج النحوي لا تتأتى - على غرار برامج أخرى - من أصوله البيولوجية فحسب وإنما أيضاً من الجانب الممتع منه على الاختبار النفسي المباشر حيث يوكل إلى أسس نفسية اجتماعية تعكس خصائص الجهاز النحوي من حيث كونه برنامجاً في حالة اشتغال، إذ المرجح أن الاستعداد الفطري لاكتساب الألسنة محكوم بغريزة الاجتماع والتعامل التفاعلي، أي في الوسط التخاطبي. بمعنى أن الاكتساب الكامل للبرنامج النحوي عند الطفل يتم في النهاية بفضل الاشتغال المستمر لهذا البرنامج في الوسط الاجتماعي اللساني، وهو من أهم ما خالف فيه هذا الطرح التوليديين. فإذا لم تكن مبادئ النحو الكلي مشتملة على حوافز التعامل فإنها مشتملة على الأقل على ما يسمح باكتسابه (الشريف 2012: 60-61)

3-1-2- نظامية الجهاز النحوي:

غير أن ذلك لا ينفى البتة اعتماد هذا الطرح في تأسيس الجهاز النحوي على معطيات نظامية شكلية قاعدية تحددت إجمالاً ببناء الجملة على مواضع الإنشاء والإحالة¹ للاستدلال على بساطة هذا البرنامج رغم طبيعته. حيث يفترض بالنسبة إلى العربية مثلاً برنامجاً محدوداً يتشكل تشكلاً بنيوياً يقوم على علاقات نسقية مركبية بدائية، ولا يشتمل إلا على شكل جملي واحد عبر عنه بـ [ڨ ففا (مف)]، وعلى معجم بسيط يشتمل على حرف ربط وأفعال وأسماء يمكن اختصاره في البنية الأساسية التالية:

ج: [ڨ ففا (مف)] = [رابط، فعل، فاعل، مفعول]

إلى جانب معجماتها من حروف وأفعال وأسماء والقواعد المؤلفة بين محلاتها. (الشريف 2012: 65).

وانطلاقاً من مخالفة النظريات التي ترى أن اشتغال النظام النحوي يقف عند توليد الجملة الواحدة ولا يقبل تكرارية القاعدة المولدة للجملة، يقترح تولّد كل الأبنية عن تكرار دوري لبنية أساسية واحدة هي البنية الحديثة [حح] الممكن تحققها في صورة فعل وفاعل [ففا] أو في غيرهما من المشتقات وفي صورة حرف دال على حدث مقولي من صنف الجمع أو الترتيب (و، ف، ثم، ..) أو غيرهما مما ينضوي بدوره إلى معنى الحدث. الأمر الذي يقوي تولد الأبنية مهما بلغ تعقدها وتركيبها عن تكرار دوري. ويقضي هذا رابطاً نحويًا قويا سماه "التواجد [ڨ]" يقارب ما سمي بـ"الضم Merge" عند التوليديين كعملية حوسبية في تركيب جميع الأبنية (سبق فيها البرنامج الأدنوي إذ كانت فكرة ذات أصول قديمة في علوم اللغة وفلسفتها) (نفسه: 66).

ولعلّ اللافت في هذا المنوال النظامي في هذا السياق هو الواقعية والربط المنطقي بالخاصية الطبيعية للغة. ذلك أن التطبيق الآلي لتعجيم البنية الأساسية في البرنامج النحوي قد ينتج خطابات غير مقبولة بموجب آلية الملء التعجيمي الشكلية المعتمدة في هذا المنوال. لذلك يفترض صلة حوافز التعجيم هذا بمنظومات عرفانية أخرى قد تكون غير نحوية. فالمعجم

1- انظر في ذلك أعمال الشريف (م-ص) 1993-2002.

باعتباره خزينة الذاكرة الجماعية للأقوال النمطية يقتضي كونه يختزن مشاهد تصويرية مقولية لما اجتمعت عليه التجربة الجماعية... بل إن أهم وظائف الجهاز النحوي هي التوسط في نقل المعلومات غير النحوية بين أدمغة الأفراد بتحويلها إلى معلومات نحوية. فالرأى أو السامع لا يمكنه أن ينقل مشاهد الإدراكية إلا بترجمتها إلى مشاهد لغوية.

والأهم من ذلك أن ما ينتج من خطابات هي في الحقيقة متضمنة بالقوة في البرنامج أي النظام النحوي، بحيث أن توليدها لا يعدو أن يكون إخراجا لها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود. وهو ما يسير العلاقة بين البرنامج النحوي والخطاب البلاغي التداولي ويصنع الرباط بينهما (نفسه:68). فالخطابات عبارة عن مشاهد موجودة في البرنامج بالقوة وممكنة الحصول بالفعل فلا مانع من توليدها أليا.

3-1-3- خاصيتا الانغلاق والقدرة على التفسير:

قد يدعم ذلك خاصية انغلاق الجهاز على ذاته. إلا أن هذه الخاصية ضرورية في تصور الأجهزة. ذلك أنها تعني أن الخطاب المحتاج إلى البرنامج المنتج له مستغن عن الواقع الخارجي فهو منغلق عنه انغلاق البرنامج المولد له. وهذه خاصية جميع الأجهزة الطبيعية والصناعية الخاضعة لبرامج دقيقة. حيث لا تستلزم ألبتة التعامل المباشر بين الجهاز والمحيط. مما يعني أن الجهاز، برنامجا وخطابا، لا يتصل بالخارج مطلقا. فهو يتعامل مع مراكز دماغية عرفانية بعضها متصل بالأطراف العصبية المتعاملة مع المحيط. كما أنه من البديهي أن تكون المؤثرات المحيطة عاملة في البرنامج النحوي إذ تستمد العناصر المسماة بالمشيرات المقامية والعبارات الإحالية قيمها في الخطاب بفضل قدرة الجهاز النحوي على تلقي المعلومات وحفظها ونقلها ومعالجتها. وبفضل الجهاز نفسه يتوصل المخاطب إلى إعادة تركيب الإحالة والإشارة. فالمفارقة العجيبة في انغلاق الأجهزة هي أنه بقدر ما تتغلق برامجها تكون أقدر على معالجة المعلومات الطارئة عليها من الخارج. وقد مثل الشريف لذلك بعدم اعتبارية أن تكون أشد الأجهزة صرامة في انغلاقها، وهي الرياضيات، الأقدر على تفسير خصائص الكون.

يقتضي كل ذلك وجود برنامج نحوي موحّد وموحّد. والعمل عليه يستدعي: أولا اعتبار الحدس الأولي المجمع على علم المتكلم السابق بطرق استعمال اللسان. وثانيا القبول ببعض الأصول

العرفانية، أي افتراض أن الدماغ ذو خصائص حوسبية في معالجة المعلومات ليست بالضرورة من صنف الحوسبة الصناعية التي أضعفت نجاعة بعض المناويل اللسانية كما بينا. وهو ما يدفع الحاجة نحو البحث عن مناويل أقرب إلى الطبيعة اللغوية والذهنية وحتى الاجتماعية. وثالثا يلزم عن مفهوم الحوسبة الطبيعية مفهوم البرنامج الطبيعي، ويلزم عن "الطبيعية" الإقرار بعدم انفصال البرنامج عن اشتغاله بحيث تتوفر في ظواهر الاشتغال خصائص البرنامج على صورة ما (نفسه 73-77).

2-1-4- الفردانية الطبيعية والتعامل الاجتماعي:

من المنطقي إذن وفق هذا التمشي افتراض عدم تعارض النسخة الفردية للبرنامج النحوي لدى كل فرد رغم انغلاقه، على غرار مختلف البرامج الجينية، مع السمة التفاعلية فيه. وهو ما ينتج آليا عن طرح سؤالنا الأول ضمن هذا العمل في علاقة العرفان بالنظام. فالقضية بالأساس كما عبر عنها الشريف: كيف نتصور هذه النسخة في علاقتها بالتعامل؟ فالقول بطبيعية اللغة وأساسها البيولوجي لا يستلزم بالضرورة مقارنة النحو مقارنة فردانية تلقي بالتعامل خارج الجهاز النحوي لكونه تداوليا. وهو ما أدى إلى الفصل المفتعل كما قدمنا بين الدلالة والتداول. فالفردانية المطلقة النافية للمقاربة الاجتماعية تعبر عن موقف إيديولوجي يجعل المنهج مفتقرا إلى ما يفسر قدرة الأبنية على استيعاب أسس التعامل الاجتماعي.

يوافق هذا الاتجاه التعاملي إذن وظيفة اللغة في الطبيعة باعتبارها تجهيزا طبيعيا يمكّن من معالجة المعلومات الطارئة معالجة جماعية. إن اللغة الإنسانية من هذه الوجهة امتداد اجتماعي للحوسبة الدماغية. إنه ضرب من "الذكاء الطبيعي الموزّع". فاللغة بفضل خصائصها التفاعلية تكوّن برنامجا لاشتغال جماعي يجاوز "الآن" والـ "هنا" أي ممتد في الزمان والمكان. إنها العقل الجماعي كما يسميها صاحب هذا المنوال (نفسه: 83-84).

خاتمة:

فرض إذن التعارض بين التصورات الفلسفية للذهن/ **للفكر** طبيعة ومادة واشتغالا تباينا بين النظريات اللسانية جسده المواجهة التي توزعت النظرية التوليدية وقسمتها شقين متدافعين يتشبث الأول بالمنظور الموضوعي الكلاسيكي Objectivist view ممثلا في الصيغ الشموسكية للنظرية التوليدية ويتوخى الثاني المنهج التجريبي الواقعي experiential realism فيما انبثق من نظريات عرفانية خاصة.

فإذا كان الذهن في المنظور الأول آلة تجريدية ذرية تعالج الرموز معالجة حوسبية خوارزمية، وتقبل التفكير والتركيب وفق قواعد معلومة، وإذا كان الفكر محكوما فيه بالمنطق الصناعي الصوري الرياضي فإنه لا مفر من إيلاء التصور النظامي الحوسبي المنزلة الأولى. وهو ما يفسر العمل المستمر في النظرية التوليدية على جعل الجهاز النحوي بـ"برنامج الأذنوي" على أقصى درجات البساطة. إذ كانت اللغة النظام الذهني الفردي ذا الهندسة الأكمل والمنغلق على ذاته حيث لا علاقة له لا بمراكز العرفان الأخرى ولا بالواقع الخارجي فيما سمي بالتداول.

أما التصور العرفاني الموازي **والمثور** فقد قام على كل ما تمليه التجريبية من أساس حسي إدراكي جسدي ومن تجربة فردية وجماعية شاملة للاستعمال والتفاعل مع المحيط. أما الفكر في هذا التصور فهو تخيلي يعتمد التصوير بواسطة المجاز والوجوه الاستعارية وما إليهما. لذلك لا يمكن أن يكون ذريا تفكيكا وإنما كليا ذا خصائص جشططية تصوغ المفاهيم في شموليتها أبنية عامة تتجاوز المكونية المجزئة. كما تربطها بالجسدي والمحيطي والثقافي الذي ينتجها. لذلك من المنطقي جدا الاستعاضة عن **النظامية** الحوسبية ذات المنحى المغرق في الشكنة بـ"**الطبيعية**" كغاية في معالجة الظواهر اللسانية، وعدم فرض قيود مصطنعة على مباحث اللغة لا أساس لها. فاللغة إذن لم تعد نظاما فرديا شكليا مكتفيا بذاته ومنعزلا عن مراكز العرفان الأخرى في الدماغ أو عن جسده ومحيطه.

يبقى أنه من الحيف أيضا تجريد النظامية التي نادى بها التوليدية تماما من الجدوى، فقد أثرت، ولاتزال، في معظم المقترحات النظرية والإجرائية للمناويل اللسانية. كما لا يمكن بالمقابل إنكار أهمية ما أضافته المعالجة العرفانية **بتبئير** طبيعياً اللغة كخاصية نوع تحد من سيطرة النظامي والبيولوجي الفردي في اللغة لتسلط الضوء على مساهمة كل ما هو إدراكي وحسي وجماعي ثقافي.

لكن **الجدوى الأعم** في نظرنا تؤول للطرح الذي يجمع بين مزاياهما ويحدد لكل منهما موقعه وأثره وحدوده. وقد أقرت النظرية الإنشائية للنحو عدم تعارض النظام والعرفان في اللغة، لكون هذا النظام في حد ذاته ليس سوى برنامج عرفاني فردي شامل لما هو تعاملّي جماعيّ بصفة كمونية. ولعل فائدة هذا التصور تكمن في الاستدلال على أن هذه الخصوصية هي التي تكسبه أولاً القدرة الاحتمالية للتوليد البنيوي اللانهائي للجمل بقدر انغلاقه على ذاته، وثانياً القدرة على استيعاب كل ما يمكن أن ينشئه المتكلم من دلالات ويتعامل معه من مفاهيم ووضعيّات داخل البرنامج نفسه. بما يكسبه القدرة على تجاوز مأزق الفصل المفتعل في القيمة الدلالية بين الدلاليّ والتداوليّ، أي بين نظام اللغة ومحيطها.

يستحيل الترجيح في نظرنا إلى كفة المناويل الكفيلة أكثر من غيرها بضمان خصائص اللغة النظامية والطبيعية والاجتماعية مجتمعةً. أي تلك التي تتوصل إلى معالجة اللغة كجهاز يجمع إلى النظامي المحوسب العرفانيّ الطبيعيّ وإلى الفردي الجماعيّ وإلى الفكريّ المجرد الماديّ والثقافيّ المكتسب على الصورة الأقرب إلى حقيقة الوقائع المدروسة.

المراجع

- الزناد (الأزهر) 2010: "نظريات لسانية عرفنية" -الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان
- دار محمد علي للنشر تونس- منشورات الاختلاف الجزائر. ط 1.
- الشريف (صلاح الدين): - 2002:"الشَّرطُ والإنشاء النَّحوي للكون" منشورات كلية الآداب بمنوبة - تونس.
- 2012: "الدارة النحوية البلاغية" مقارنة نظرية لتعليمية الألسنة- ح ج ت- 57. جامعة منوبة- تونس.
- Biola (Edmond) 1998 : « Syntaxe générative : La théorie des principes et des paramètres » Munchen, Lincom Europa.
- Boecks (Cedric) 2006 : « Linguistic minimalism » Oxford, Oxford University Press.
- Chomsky (Noam) : - 1957: « structures syntaxiques » -Ed. du seuil Paris.
 - 1969: la nature formelle des langues naturelles » la linguistique Cartésienne. Éd. du Seuil – Paris.
 - 1995 : « The minimalist program » MIT– Massachusetts
 - 2005: « three factors in language design » Linguistic Inquiry 36: 1, p 1- 22.

- Fortis J.-M : **2011**: « *La notion de grammaire usage-based chez Langacker. Emergence et développement* »- *Travaux de linguistique n° 62- p-p : 35- 58.*

- *Gledhill (Ch) 2011* : « La grammaire générative : une introduction critique et une confrontation avec le modèle systématique fonctionnel » *Amadis 9* : 341- 374. Université Strasbourg.
- Jackendoff (Ray)® 1997 : « The architecture of Language Faculty » Cambridge/ Mass- MIT Press.
- Katz J. J. & Postal P. M. 1964, *An Integrated Theory of Linguistic Descriptions*, Cambridge, Mass., MIT Press.
- Langacker R. W. 1973: "French interrogatives revisited" – Casa grande J & Saciuk B(eds) *Generative studies in Romance language*, Rowley , Newbury house. p 36- 69.
- Langacker R. W 1987: "Foundations of Cognitive grammar, Vol 1 : theoretical prerequisites. Stanford University Press.
- Langacker R. W 1988: "A usage-based model" in Rudzka-Ostyn B, (ed)*Topics in cognitive Linguistics*. Amsterdam/ Philadelphia. Benjamins, p: 127- 161.
- White Lydia 2003: "Second language acquisition and Universal Grammar Cambridge University Press.